الوصف فى شعر امرئ القيس

لحضرة الأستاذ السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

١ ــ تمهيد عام

سنكتب فى الشعر الجاهلى ، لا لأنه قديم ونحن قدامى كما يزعمون بل لأننا خدام العربية وهو فى حاجة إلى أن يخدم بعد ، ولا زالت فيه نواح تتطلب أن يكشف عنها وتستراد ؛ وسنتخير من بين فنونه الوصف ، لأنه أحفلها مادة وأبعدها مدى وأدقها متناولا . ولأن انصراف الباحثين عنه جاء بقدر ما له من مكانة فبقى مغموراً غير معروف ، يعده العادون ذيل الفنون ، وهو لها الهامة والرأس والمرجع والأصل . وليس هذا الانصراف عن عيب فيه ، بل لأنه تناول أموراً بدوية بعدت إلى قدر ما عن الحضر . فهجرت أغراضه ومن ثم أهملت فاستعجمت الفاظه . ولكن ما ذنب العرب فى جاهليتها ينسى لذلك أهم فنونها ، فيضل كثير من آيات حذقها وعبقريتها .

نعم سنتكلم فى الشعر الجاهلى وسنتخير من بينه الوصف لأن تلك الفنون لم تدع خلقاً من أخلاق العرب فى ذلك العهد إلا وصفته ، ولا وجداناً من وجداناتهم إلا أظهرته كما لم تدع فى بيئتهم كائناً محساً دون وصف ، ولا فى عرفهم شيئاً من عقيدة أو عادة دون ذكر . وإذ كان الوصف معناه الكشف والاظهار ، فقد جاء فى عمومه باباً واسع النطاق صالحاً لأن يضم إليه كل ما إليه أشرنا . ولكن العرف الأدبى مال به عن ناحية المعنى إلى ناحية الحس ، فأصبح يتناول أول ما يتناول المرأة

وما يتعلق بها من هذه الناحية ثم يتناول كل ما شملته البادية العربية من طبيعة أرض ولون سماء ومن أحداث جو وأصناف نبات ومن حيوان يدب على الأرض وطير يصعد فى السماء . وقد تفاضل الشعراء فيه كما تفاضل الناس فى سائر الأشياء ، فمنهم من قصرت إجادته على شىء دون شىء كأبى دواد الايادى فى وصف الخيل وطرفة بن العبد فى وصف الابل والشماخ بن ضرار فى وصف الحمر الوحشية والقسى وأوس بن حجر فى وصف القسى وسائر عدد القتال والأعشى فى وصف الخمر وغيرهم ممن عرفوا باسم الشعراء الوصافين لما تعرضوا له مجيدين ، ومنهم من أجاد فى كثير من الأوصاف وإن فضل نفسه فى بعضها كامرىء القيس فى معظم ما ذكرنا ولذا جعلنا الوصف فى شعره أساساً لما سنتناوله من كلام عن الوصف فى الشعر الجاهلى عامة .

ب — تمهيد خاص

قلنا إننا سنتخذ الوصف فى شعر امرىء القيس لشموله أساساً لما سنتناوله من كلام عن الوصف فى الشعر الجاهلى فوجب أن نمهد ذلك بتمهيد خاص يجمل لنا كيف عاش ويرينا فنون وصفه لنتكلم عنها فنا فنا .

نشأ امرؤ القيس فى بيت ملك عتيد صفا له الدهر دهراً فكان أبوه ملكا وأعمامه ملوكا ، وكان يتصل بوساطة هذا البيت ببيت المناذرة صلة نسب فى القحطانية وصلة مصاهرة فى أن هندا أم عمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند كانت عمة أبيه حجر ، وبالمصاهرة أيضاً كان يتصل ببنى شيبان أعز بيت فى بكر لأن جده الحارث كان على ابنة عوف بن محلم الشيبانى كما يتصل كذلك بأعز بيت فى تغلب فان أمه فاطمة بنت ربيعة كانت أخت كليب ومهلهل . ففى هذه البحبوحة والسعة كانت نشأته ولكنه انصرف بكل نفسه إلى ناحية اللهو والاستمتاع بما يلهو ويستمتع

به أبناء الملوك العابثون فكان يتنقل فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذها وكلما صادف غديراً أو روضة أقام فنحر لهم ثم خرج فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا وشرب وسقاهم وغنته قيانه وفى كل ذلك يقول الشعر غير متحرج من قول ولا مقلع عن غى حتى بذ شعراء عصره جميعاً فى كل ماتعرض له من وصف النساء واللهو بهن ووصف الخيل والصيد بها ووصف مظاهر الطبيعة وأهمها فى هذه البلاد المطر بما يتقدمه من برق ويعقبه من سيل إلى غير ذلك مما يحوم حول هذه النواحى الثلاث ويتسق وتيارها فى كل ماتتطلبه حياة العبث واللعب من ذوى العزة واليسار النائين بطباعهم عن مهام الجد ومشاغل المسئولين . هكذا كان إلى أن قتل أبوه فاقبل على حياة أخرى نقلته من تملك وسلطان إلى خضوع وهوان ، ومن وجد وسعة إلى ضنك وفاقة ، ومن عزة وهيبة إلى مذلة ورهبة ، ومن غير ذلك إلى غير ذلك ، مما جعله فى حياته الثانية شخصاً غير شخصه الأول وجعل شعره يجىء ملائماً لهذه الحياة الجديدة بقدر مخالفته لحياته القديمة فعدل عن الأغراض الثلاثة المتقدمة إلى أغراض أخرى يتطلبها الاحساس بالتبعة قد ألقيت على عاتقه فى الأخذ بثأر أبيه ودأبه فى هذه السبيل يتذوق حلاوة النصر حيناً ويتجرع مرارة الهزائم أحياناً ثم انتهاؤه من كل ذلك إلى أن يصبح هائما على وجهه مفزعا مطلوبا يقصد هذا فيصده ويطنب إلى ذاك فيضمه ولكنه عما قليل يلفظه حتى نبت به الجزيرة على رحبها فخرج مستنجداً قيصر الروم إذ ذاك فلم ينجده وفى عودته من عنده خائبا وافاه جله بعيداً عنه وطنه وأهله . ففنونه فى هذه الحياة كانت الوعيد والتهديد والتحمس والتفاخر ، وكانت المدح والشكر والمعاتبة والهجو ثم كانت شكوى أيام جارت ، وتذكر عزة سلفت . فكأنها ثلاث نواح حاضرة تقابل ثلاثا غابرة وعلى هذا النسق سيكون ترتيب الكلام .

١

ناحية المرأة والغزل

جاءت حياة امرىء القيس الأولى أشد ملاءمة للوصف وجاء الوصف أغلب عليها ولما كانت معلقته قد قيلت فى هذه الحياة قطعاً فقد جاءت طرفة فنية فى الوصف ومرآة صادقة لألوان تلك الحياة ولهذا رأينا أن نتخذها أساساً نبنى عليه ماقال من وصف فى غيرها بادئين كما بدأ بالجانب النسوى منها .

ترينا المعلقة بجلاء ووضوح وصراحة ومكاشفة أن صاحبها عاش تلك الحياة لاهياً لاعباً قد أرخى لنفسه العنان إلى غير حد فلم يتكلف فى إحساس ولم يتستر وراء تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه ولا فكاك للسانه عما يريد قلبه فهى من ناحيته تمثل نفساً إباحية ومن ناحيتها تصلح النواة الأولى لما يسمى الآن بالأدب المكشوف وليس بدعا من خليع مستهتر كامرىء القيس يبيح لنفسه فى عجب وخيلاء وتفاخر وتباه أن يحتبس على عنيزة ابنة عمه وأترابها ملابسهن يوم الغدير بدارة جلجل ويأبى التسليم فيها إلا ملبسا ملبسا لواحدة واحدة تأتيه عارية مجردة وهو لذلك جد طرب وبه جد فخور . نقول ليس بدعا منه أن يقول فى الأدب المكشوف وقد نحر ناقته ليركب مع ابنة عمه وقد ركب فملا مثل قوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ... ولا تحرمينى من جناك المعلل

ثم لا يخجل أن يفحش فيقول :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول
إذا مابكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

وهذه الناحية المكشوفة أكثرمنها فى شعره الذى قاله فى سنيه الأولى وكان يسمى نفسه من أجلها فاجراً فاخراً كقوله :

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا وما إن من حديث ولا صالى

وسيأتى ذكر هذا عند الكلام على نظائره من المعلقة فى موضوع اليوم

بدأ امرؤ القيس معلقته بخير مطلع عرف على غير مثال سابق فى وصف الاطلال والدمن والوقوف عليها والبكاء على أهلها الراحلين بعد تعرف معالمها واستبانة رسومها وفى وصف مرارة البين والوقوف الأصحاب عليه يؤسونه وهو لايرى من شفاء غير سفح العبرات حيث يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

وهذا مطلع أجاد فيه التشبيب ووضع له أسساً اتبعه الشعراء فيها من الوقوف على منزل الحبيب وحدة تلك الحدود الضابطة وتعرف معالمه ورسومه على الرغم مما نسجته عليها الرياح جنوبية وشمالية ومن انتحابه غداة البين انتحاباً يسيل عبراته كما تسيلها رائحة الحنظل من ناقفه وهو تشبيه منتزع من جوف البادية وقرارتها، ومن أن موقفه هذا كان محل العطف من صحبه إذ وقفوا مطيهم عليه متوسلين أن يتجمل ولا يهلك أسى، ومن أن مطلبهم هذا كان عزيز الاجابة لأنه يرى شفاءه فى العبرة المهراقة ويرى

أن لا معول ولا سلوى عند رسم قد درس واحتمل أهله. ولم يقف عند حدود هذا الافتتان فى مطالعه على تقاربها بل كان يودع كل مطلع من المزايا مايفضل به غيره فهذا المطلع عينه قد حكاه فى عينيته التى قالها وهو مريض فى طريقه إلى قيصر الروم ولكنه خالف فجعل العفاء فيها حقيقة واقعة لطول العهد، بينا جعل الرسوم هنا ظاهرة باقية لحداثته وهذا إذ يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليه فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان
ذكرت بها الحى الجميع فهيجت عقايل سقم من ضمير وأشجان
فسحت دموعى فى الرداء كأنها كلى من شعيب ذات سح وتهتان

فهذا مطلع لذكرى تقادم عهدها إذ كانت هذه القصيدة فى حياته الثانية بخلاف مطلع المعلقة التى كانت فى حياته الأولى ولذلك يقول عفت آياته منذ أزمان ويقول أتت حجج بعدى عليه فأصبحت تلك الآيات كخط صحيفة فى مصاحف الرهبان وهى ذات قدم وخفاء، وانظر إليه يخالف فى وصف غزارة دمعه عما قال فى المعلقة آنفاً فيجعل عينيه تسحان الدمع سحا كفتق المزادة الكبيرة تشعب وتنفرى منها كلاها. وله مطلع آخر خالف فيه هذين فأجاد وأبدع وهو قوله فى الطلل يتم دروسه وعفاؤه حتى تنكره العين ولكن النفس تدركه بما لها من شغف باهله وتمام صلة باصحابه وهو ابتكار منه فى إيجاز وحسن أداء قال:

لمن طلل درست آيه وغيره سالف الأحرس
تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الأنفس

وكما ابتكر هذه الأجادات فى وصف الطلول والوقوف عليها ابتكر كذلك تحية الربوع والأطلال والدعاء لها بما يرجو من نعيم مع التحسر

على عدم إجابتها له فى خطابه إياها وعلى عدم تحقق متمناه لها وذلك فى كثير من قصائده كالذى يقول فى مطلع لاميته وهو :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم مايبيت باوجال
وهل يعمن من كان أحدث عهده ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال

إلى غير ذلك من المطالع التشبيبية التى استنها للشعراء واستحسنوها من بعده وعملوا على محاكاته فيها ومع ذلك لم يزيدوا بل لم يصلوا ولم يقاربوا.

غادر امرؤ القيس هذا التشبيب إلى ذكر محبوباته يصف توزع هواه بينهن من أم الحارث وجارتها أم الرباب وغيرهما ممن أجمل الكلام عنهن إجمالا قبل أن يخاص إلى عنيزة ابنة عمه فالى فاطمة العامرية العذرية فالى بيضة الخدر التى دب إليها ، وكل ذلك فى الجزء الأول من معلقته فأرانا بهذا كيف يكون الحب المفرق على مغانى الحسن والجمال يلهو به صاحبه حيناً مع هذه وحيناً مع تلك حتى لكأنه قد وضع بهذا النوع من الوصف أساس الغزل الاباحى والحب المصنوع الذى حاكاه فيه على ضآلة بعض الشعراء الجاهليين واقتفى أثره مجيداً فيه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بعد حتى تولى زعامة ذلك النوع من الحب مناظراً جميل بن عبد الله بن معمر فى زعامته الهوى العذرى ، فعمر من بحر امرىء القيس كان يغترف ومن غرسه كان يجنى فى الأوصاف الحسية يغرى بها الغوانى إغراء وفى الزورات الليلية ينتهب لذته معهن انتهابا وهذا بعض ماقال امرؤ القيس فى ذلك قال فى المعلقة يصف دبيبه إلى محبوبته ويتخاص منه إلى وصفها نفسها :—

وبيضة خدر لايرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصاً لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

فجعل محبوبته منيعة المنال حتى يكون إقدامه عليها إقدام شجاع بطل يقتحم الليل فى سراه ويتجاوز الأحراس حراصا على قتله، وعرف كيف يتحدث عن لسانها حديث الخائفة عليه الطامعة فيه التى تدعه يخرج بها ماشيا فتجر على أثره وأثرها ذيل مرطها إخفاء وتلبيساً كما تدعه يجتاز بها ساحة الحى وينتحى مكانا ذا ستر واكتنان ثم أحسن الانتقال من ذكر هذا الخروج الذي دب إليه دبيبا إلى الدخول فى وصفه لها إذ هصر فوديها فتمايلت عليه بكشح نحيل هضيم ومخلخل ريان ملىء حيث يقول فى تفصيل هذه الأوصاف المكملة للوصفين السابقين

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل
تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فى مثنى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل
وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى أو مساويك إسحل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواك بمنسل
ألازب خصم فيك ألوى رددته نصيح على تعذاله غير مؤتل

فهو قد أقبل إلى تلك المرأة التى جعلها بيضة فى نقاء اللون ونعومة الملمس ونسبها إلى الخدر إبقاء على محاسنها وضنا من أهلها بتبذلها ، والتى جعل كشحها هضيما ومكان خلخالها ريان مليئاً فلم يترك شيئاً يحسن وصفه لذوى الحب المادى إلا وصفه مجيداً. فقد جعلها بهفهفة وهى اللطيفة الخصر الضامرة البطن غير مفاضة والمفاضة العظيمة البطن المسترخية اللحم ، وجعل ترائبها وهى موضع القلادة من الصدر فى الصقل والرونق كالمرآة جلاء وإشراقا ، وعاد فشبهها بالدرة المثوب بياضها بالصفرة على أن يكون نموها فى ماء صاف غير مطروق . ثم أبق على أسالة خدها معرضة ومقبلة وأعارها عين بقرة من حسان البقر متقية مطفلة وأعطاها جيد رئم يعشق لاعتدال طوله ويحلى لثراء صاحبته كما جعل فرع شعرها كالفحمة فى سواده وقنو النخلة فى تعثكله وأنها لغزارته قد نوعت بين أشكاله دلا فأضلت عقاصه فى مثناه ومرسله ثم جعل كشحها فى لطافته وتخصره جديلا ، وساقها فى انسجامه ولونه أنبوباً وأصابعها أساريع ظبى أو غصون أراك ، وأنها ربة نعمة ورفه يتمتع فراشها بفتيت المسك وتتمتع عليه بنوم الضحى ولم ينس أن يعقب على هذه التفاصيل بجعلها فى إشراقها جملة منارة راهب تبدد ظلام العشاء ، وأن مثلها إذا تبخترت فى ثوب وسط ليس بالدرع الطويل ولا المجول القصير يرنو الحليم صبابة إليها ، فلا غرو إذا لم يتسل عنها وإن تسلى غيره وإذا رد فيها ذا الخصومة لها مهما صدق نصحه واشتد تعذاله

وقال من لاميته يذكر الدبيب أيضا :

سموت إليها بعد مانام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فقالت سباك الله إنك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا وما إن من حديث ولا صالى
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى إذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظن والبال

وليس بعد هذا رفق فى التحدث إلى النساء والحكاية عن ترويضهن وإذلالهن فى عبارات تذوب رقة وتسيل تأثيراً . وله من عينيته ذكر لهذا الدبيب كذلك ، خلص إليه بعد أن أحسن الوصف لما صار يراقبه من خلات العيش إذ ودع الصبا فأجاد فى الغرضين حيث يقول :

وأصبحت ودعت الصبا غير أننى أراقب خلات من العيش أربعا
فمنهن قولى للندامى ترفقوا يداجون نشاجا من الخمر مترعا
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا يبادرن سربا آمناً أن يفزعا
ومنهن نص العيس والليل شامل بيممن مجهولا من الأرض بلقعا
خوارج من برية نحو قرية يجددن وصلا أو يرجين مطمعا
ومنهن سوف الخود قد بلها الندى تراقب منظوم التمائم مرضعا
يعز عليها ربيتى ويسوءها بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا
بعثت إليها والنجوم ضواجع حذاراً عليها أن تهب فتسمعا
فجاءت قطوف المشى هيابة السرى يدافع ركناها كواعب أربعا
تقول وقد جردتها من ثيابها كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجدك لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
تصد عن المأثور بينى وبينها وتثنى على السابرى المضلعا
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت بمنكب مقدام على الهول أروعا

وهذا لا يقل عن سابقه دقة وصف وحسن تناول ، وله غيرهما كثير يمثل هـذه الناحية من الدبيب إلى النساء ووصف النساء تمثيلا يضم إلى انتهاب اللذة رفاهة العيش ووفرة النعيم ، وإلى سمو المنزلة شمائل الملك وعظمة الذات ، ومن هذا المترع كان يكرع ابن أبى ربيعة زعيم الغزل الاباحى بعد كما تقدم ، على أن امرأ القيس ما كان ينجو خلال هذه التخمة بالملذات من هجر وقتى يضطره إلى المعاتبة والاستعطاف فيبلغ فى وصف ذلك مبلغا يحله الجانب العذرى من الحب محل الرضا والاعتبار كأن يقول يخاطب فاطمة تلك فى دلها عليه

أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة ... فسلى ثيابى من ثيابك تنسلى
أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وإلى هنا نقف من هذا الجانب النسوى الآن حتى نتم ما لامرىء القيس من أوصاف ثم نعود بعد إلى مكانته فى كل وصف من حيث استعانة الشعراء به فيه ؟